٣ — الحاجة الى زيادة المعرفة بالانسان

الانسان المجهول

للعلامة الكسيس كارل

تلخيص : اسماعيل مظهر

ينبغي إذن ان نتعرّف كيف ينتظر ان تؤثر أساليب الحياة الجديدة في مستقبل السلالة البشرية . فان استجابة النساء لاوجه التكيّف التي اتابت حياة اوائلنا وعاداتهم ، من طريق الانقلاب الصناعي ومدنية الانتاج العملي ، كانت حاسمة سريعة . ولك ان ترى شيئاً من ذلك في ان نسبة المواليد قد نقصت فجأة . ولقد كان لهذا الحادث أثره البالغ الجلل في الطبقات الاجتماعية وفي الامم التي كان يظن انها سوف تكون أكثر اهل الارض استمتاعاً ، إن مباشرة أو بالواسطة ، بفوائد التقدم الحديث وجنياً لثمراته ، بتطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عملياً . على ان العقم بالارادة — اي تعقيم النساء بحكم الاختيار — ليس حادثاً جديداً يشهده لاول مرة تاريخ العالم ، فانهُ كان طابع بضعة عهود مرت في تاريخ مدنيات بائدة . إنهُ لعرَض طائني. على اننا ولاشك نعرف له مكافحةً تامة المرونة

وإنهُ لمن الظاهر أن التغيرات التي اتابت محيطنا بذيوع « الصناعية » — Technology — وبالحري الفن الصناعي ، قد أثر في جمعيتنا تأثيراً بالغ المدى . بيد ان نتائج هذا « الفن » قد لابستها خليقة لم نكن نتوقعها . لقد أدركنا ان لها نتائج تنافي كل المنافاة تلك التي أمَّلناها فيها ، والتي كان لنا ان نرتقبها من أوجه الارتقاء التي اتابت مساكننا وطرائق حياتنا وأغذيتنا وتعليمنا والجو العقلي الذي كوّنته من حولها الخلائق البشرية في العصر الحديث

إذن نتساءل : كيف اتينا الى هذه النتائج المتناقضة ؟

٥ — إن هذا التغير مضر ، مادام انهُ قد تمَّ من غير نظر صادق في حقيقتنا

قد يمكن ان نجيب عن هذا السؤال جواباً بسيطاً ساذجاً ، فنقول : إن المدنية الحديثة قد تعسّرجت وارتجّت دعائمها ، لانها لا تواتينا . ذلك بأن قواعدها قد اقيمت من غير نظر في حقيقة

طبيعتنا أو معرفة بمواردها وليدة نزوات الكشف العلمي، وشهوات الناس وخيالاتهم ونظرياتهم ورغباتهم. فهي على الرغم من أنها قد شيدت بجهودنا، فانها خلقت بعيدة عن ان تكافىء منا الحجم والشكل

والظاهر الجلي ان العلم لا يتبع طريقاً مرسوماً او خطة معينة. انهُ ينمو خبط عشواء. وأوجه تقدمه رهن بحالات اتفاقية، القضاء الصرف مصدرها، والقدر الاعمى منبعها. مثل ذلك ميلاد النابغة ذوي الكفايات، وتكوين عقولهم، والاتجاه الذي تتجه اليه قوة التطلع فيهم. وكل هذا لا يقع اتباعاً للرغبة في تحسين حالات الانسان. فإن المكتشفات التي أحدثت المدنية الصناعية إنما جاءت تبعاً لما تغلب على مشاعر العلماء وميولهم من الاهواء، والظروف التي أحاطت بمجهوداتهم. فلو أن غليليو ونيوتن ولافوازيه كانوا قد صرفوا قوام العقلية الى درس الجسم الحي والنفس، اذن لكانت دنيانا غيرها الآن. فان رجال العلم لا يدرون في اي طريق هم مسوقون. انهم انما تقودهم المصادفة والتفكير العلوي، وبالحري ضرب من الكشف النفسي — clairvoyance، وان كلاً منهم بمنزلة عالم برأسه، له سنتهُ التي تحكمهُ. وبين الفينة والفينة يتجلى لهم من الاشياء، ما يظل غامضاً على غيرهم. وعلى الجملة نريد ان نقول إن المكتشفات إنما تأتي عفواً من غير تقدير للنتائج التي تترتب عليها. على ان نتائجها قد أحدثت في الدنيا انقلاباً بالغاً، صوّر حضارتنا في الصورة التي نشهدها

انتقينا من تلك الثروة العلمية الضخمة أجزاء بعينها. على ان اختيارنا لتلك الأجزاء لم يكن حليف التفكير فيما تحتاج اليه الانسانية من المصالح العليا. لقد اتبعنا في الاختيار اتجاهاً أملتهُ علينا ميولنا الطبيعية. ان العوامل المسيّرة التي أدت الى نجاح المخترعات الحديثة في حضارتنا قد ترجع في حقيقتها الى مبادىء تعلق بها الانسان هي: الحصول على الراحة والرضا ببذل أقل ما يمكن من الجهد، والجذل الذي تحدثهُ السرعة أو اختلاف المناظر، مضافاً الى ذلك حاجة الانسان الى التخلص من ذات نفسه بعض الاحيان. ولكن قلما ساءل أحدٌ نفسه: كيف يستطيع ان يواجه عوامل الاسراع التي انتابت أُلفة الحياة وانسجامها، تلك العوامل التي تتجلى مظاهرها في سرعة الانتقال والبرقة (التلغراف) والمسرّة (التليفون) وأساليب التعامل الحديثة، والآلات الكاتبة الحاسبة، بل وجميع تلك الاجهزة التي تقوم الآن بأعمال المنازل الحديثة. فان النزعة التي حملتنا على استخدام الاجهزة الحديثة، كالطائرات والسيارات والخيالة والمسرّة والراديو، والتي ستحملنا في القريب العاجل الى استخدام المرناة Television هي في حد ذاتها نزعة طبيعية، أشبه بتلك التي حملت آباءنا في ظلام القرون الاولى، على ان يعكفوا على تعاطي الخمور. فالمنازل المدفأة بالبخار، والنور الكهربي والمراقي elevators وذيوع الاغذية الكيماوية والتزام حدود

أدية خاصة في الحياة التناسلية ، عامةً ذا لم يقبله الناس الا لأنها مخترعات محببة الى النفس ، مجلبة للرّضا . ولكن لم يلتفت أحدٌ الى شيء مما لها من الاثر المحتمل في الخلائق البشرية

***

في تنظيم الحياة الصناعية لم يلتفت الى شيء مما للعمل من التأثير الوظائفي والعقلي في حياة العمال . فالصناعة الحديثة قائمة على قاعدة — « أكبر نتاج بأقل نفقة » — حتى يتمكن فرد واحد أو مجموع من الافراد من كسب أكبر مبلغ يمكن كسبهُ من المال . ولقد نمت هذه الطريقة وتشعبت من غير ان تساور انساناً فكرة ما في طبيعة الخلائق البشرية الذين يحركون الآلات ، ومن غير ان يؤبه بالتأثيرات التي تنتاب الافراد ، وبالتبعية أعقابهم ، من طريق ذلك الاسلوب المصطنع الذي تفرضهُ حياة العمل عليهم فرضاً . كذلك شيدت المدن العظيمة من غير ان يحسب حساب للخلائق التي تسكنها . فالمطرحات Sky-scrapers بصورها الدميمة وحجومها العظيمة لم تقم الاَّ على فكرة الحصول على أكبر إيراد ممكن من كل قدم مربعة من الارض ، وتزويد ساكنيها ، أصحاب مكاتب كانوا أم طلاب إقامة ، بأماكن يرتاحون اليها ويأنسون بها . وكان هذا سبباً مباشراً في اقامة تلك العمائر المطرَّحة العظيمة ، التي تزدحم بعدد كبير من أبناء آدم . وأبناء المدنية الحديثة يألفون هذا الاسلوب من الحياة . وبينما هم يمتعون بمباهج هذه الحياة وزخارفها التي تحوطهم في مساكنهم تلك ، ينسون أنهم قد جرّدوا من حاجيات الحياة . فان المدن الحديثة انما تتألف مما يشبه الاغوار السحيقة القائمة جنباتها حفافي شوارع مظلمة ضيقة شاع فيها لهب النزولين وتراب الفحم والغازات المسمَّة ، وتعالت فيها جلبة السيارات والعربات والترام ، وازدحمت على غير انقطاع بجماهير غفيرة من الناس . والمدرك من هذا جميعه ان المدائن الحديثة لم تُشد بحيث تتفق مع الخير الذي ينشده سكانها

ان حياتنا الحديثة تتأثر الى حد بعيد بالاعلانات التجارية . ذلك بأن اذاعة هذه الاعلانات لم يلحظ فيه مصلحة المستهلك ، بل منفعة المعلن . ومثلنا على ذلك ان الجمهور قد لقن ان العيش الابيض خير من العيش الاسمر . فطفق تجار الدقيق يمعنون في نخلهِ المرَّة بعد المرة حتى تجرَّد من كل عناصره المفيدة . وبذلك استطاع تجار الدقيق وأصحاب المخابز ان يحصلوا على أرباح أعظم مما كانوا يرجون ، في حين ان المستهلكين قد انحطت قيمة غذائهم ، وان اعتقدوا انهم انما يأكلون غذاء أنفع من غذائهم الاول . وقد اتضح ان الامم التي يؤلف الخبز غذاءها الرئيس ، مضت تنحدر وتنحط . والحصل أن اموالاً طائلة تنفق على الاعلان . فكان من نتائج ذلك أن مقادير عظيمة من المنتوجات الغذائية والصيدلية ، منها ما هو غير مفيد ، ومنها ما هو مضر ، قد اصبحت من الحاجيات التي يعكف عليها الانسان المتمدن . وبهذا نجد ان طوائف من ذوي الطمع والجشع

قد استطاعوا بطرائقهم الخاصة في دفع الجماهير الى استهلاك سلعهم التي يعرضونها للبيع ، ان يحدثوا اثراً بالغاً في حالات العالم الحديث

ومع هذا فان الدعاوة التي توجه طرائق عيشنا في الحياة الجديدة ، لا تخضع دائماً للبواعث الأنانية . ذلك بأن الظاهر من طبيعة تلك الدعاوة أنها بدلاً من ان تتجه الى فائدة الافراد المالية او فائدة جماعة منهم ، فانها في الاكثر ترمي الى النفع العام . غير انها الى جانب هذا قد تكون بالغة منتهى غايات الضرر والفساد ، إذا هي صدرت عن اشخاص تصورهم ، الذي كوّنوه عن هذا الكائن البشري ، ناقص او خاطىء . ولنضرب لذلك مثلاً . فان اطباءنا اذ ينصحون بالتزام ضروب خاصة من الطعام ، وكثيراً ما يفعلون ذلك ، يزيدون الاطفال تسارعاً في النماء ، وبدن فعلهم في مثل هذه الحال على انهم ولا شك يجهلون الموضوع الذي يعالجونهُ ، فهل الاطفال الذين هم اكبر حجماً او أكثر ثقلاً ، اصلح من اولئك الذين هم اصغر حجماً او أخف وزناً ؟ فان الذكاء والنشاط والهمَّة والقدرة على مقاومة الامراض لا تتوقف على وزن الجسم او كبر الحجم ، أو ما يجري ذلك المجرى من الصفات . ومثل آخر نقتطعهُ من معاهد العلم . فان التعليم الذي تفرضهُ المدارس والجامعات انما يعنى غالباً بتدريب الذاكرة ومرانة العضلات على نمط اجتماعي خاص ، يُسلم حتماً الى شيء من الضعف النفسي ، يتجلى في عبادة الرياضيين ، فهل مثل هذه النظامات مفيدة لرجال العصر الحديث الذين هم أحوج ما يكونون الى الاتزان العقلي وثبات الاعصاب والحكم الصادق على الاشياء والهمة والشجاعة الادبية وقوة الاحتمال ؟ ولقد نتساءل لماذا يتصرف رجال الصحة تصرف المقتنعين بأن الانسان عرضة لان يصاب بالامراض المعدية وحدها ، من غير ان يفكروا في انهُ الى جانب هذا معرَّض الى الاضطرابات العصبية والعقلية والى ضعف العقل بصورة عامة . ومن هنا نرى ان الأطباء والمعلمين ورجال الصحة ، ولو أنهم يعملون جهدهم رامين الى خير الانسان ، فانهم لا يصيبون الغرض الذي يرمون اليه . ذلك بأنهم يعالجون مقدمات لا تتضمن من الحقيقة الا جزءاً ضئيلاً . وقد يصدق هذا الحكم على كل اولئك الذين يستعيضون بميولهم واحلامهم ومذاهبهم عن تلك الحقيقة الجامدة التي ندعوها الانسان . وما هؤلاء غير نظريين يحاولون ان يقيموا مدنيات لا تلائم عند الواقع غير صورة مشوَّهة ممسوخة من الانسان ، لا الانسان على حقيقته . والذي لا شك فيه ان أنظمة الحكومات التي تقوم في ادمغة أصحاب المذاهب الاجتماعية من غير ان تكون اصولها مستمدة من الحالات الراهنة ، اشياء معدومة القيمة هزيلة الوزن . فمبادىء الثورة الفرنسية ، واوهام ماركس ولنين ، إنما تصلح لنوع من البشر خياليّ لا حقيقة لوجوده . ولذا أقول انهُ من الواجب أن نؤمن بأنّ السنن التي تحكم الصلات الانسانية ما تزال مجهولة خفية ، وإن لنا ان

تقضي الى جانب هذا بأن علمي الاجتماع والاقتصاد علمان ظنيان حدسيّان، وبالحري علمان كاذبان
لهذا نقول أن المحيط الذي تعاون العلم والفن الصناعي على تكوينه ونجحا في خلقه ليكون للانسان مباءة، محيط لا يوائم الانسان، ذلك بأنهُ شيد اعتباطاً، من غير نظر في حقيقة ذاته

٦ — حاجتنا الى معرفة أوفى بحقيقة ذواتنا

والحصل: ان علوم المادة الجامدة قد أحرزت تقدماً عظيماً في حين ان علوم الكائنات الحية ظلت بدائية. فان بطء التقدم الذي تأتَّى في علم الاحياء — Biology — إنما يرجع الى الحالات المحيطة بالوجود الانساني والى تعقد ظاهرات الحياة والى الصورة التي انصب فيها ذكاؤنا، وهو ذكاء يميل بفطرته الى الأبنية الآلية والى الرياضيات المجردة. ذلك الى ان تطبيق المكتشفات العلمية تطبيقاً عمليّاً قد قلب الآية في عالمي المادة والعقل. وكان من جراء ذلك الانقلاب أن حدث تأثير عظيم الخطر على حالات الحياة. أما اخطر ناحية من نواحي ذلك الانقلاب فتنحصر في أنهُ استحدث من غير نظر او اعتبار لطبيعتنا. فان جهلنا بأنفسنا قد أوسع المجال لعلوم الآلة والطبيعة والكيمياء تلك القوة التي مكنتها من ان تكيّف تكيفاً أعمى انماط الحياة التي ألفتها أسلافنا

والحقيقة ان الانسان ينبغي ان يكون القياس الذي يقاس عليه كل الاشياء. وبالرغم من هذه الحقيقة وعلى عكس ما تقتضيه تماماً، يعيش الانسان غريباً في هذا العالم الذي خلقهُ من حوله. لقد عجز الانسان عن ان ينظّم دنياه، لانهُ لا يملك المعرفة العملية بحقيقة طبيعته. فكان التقدم العظيم الباهر الذي حازتهُ علوم المادة الجامدة وبقت به العلوم ذوات العلاقة بالكائنات الحية، من أعظم الكوارث التي انتابت الانسانية. والمحيط الذي أبدعهُ ذكاؤنا وتلك المخترعات التي اخترعنا، قد أثبتت انها غير ملائمة لنا من اكثر الوجوه. نحن انما نشعر بأننا تعساء، واننا ننحدر أدبيّاً وعقليّاً، وتلك عشائر الانسانية وأممها التي بلغت فيها المدنية الصناعية أرقى مبالغها، هي بذاتها العشائر والامم التي ترى انها آخذة في أسباب الضعف شيئاً بعد شيء، بل انها العشائر والامم التي نلحظ ان رجوعها الى الهمجية سريع وشيك. غير انها لا تشعر بهذه الحقيقة. انها تعيش غير محمية من أثر البيئات المادية التي كوّنها العلم من حولها. والواقع انحضارتنا، كالحضارات السابقة، قد خلقت حالات أصبحت معها الحياة، لاسباب ما تزال غامضة، أمراً يكاد يكون مستحيلاً. فان متاعب أهل المدن الحديثة وشقاواتهم، انما تعود الى نظاماتهم السياسية والاقتصادية ومعاهدهم الاجتماعية، وفوق كل هذا، الى ضعفهم الذاتي. وعلى الجملة نشعر أننا ضحية لتأخر علوم الاحياء وسبق علوم المادة عليها

أما العلاج الاوحد لهذه البيئات فاستعانتنا في المعرفة بحقيقة ذواتنا . فان امتعاقنا وتعمقنا في هذه المعرفة سوف يمكننا من معرفة وسائل الحياة الجديدة التي تؤثر في وعينا وفي جسومنا. وبهذا نفقه بأي سبيل نكيّف انفسنا بحيث نلائم بيئاتنا وكيف نبدل هذه البيئات ، إذا ما أصبح قلب نظمها وأسسها ضرورة محتومة . وانتا باستظهار طبيعتنا الحقيقية وكفاياتنا والطرق التي تجعل بها هذه الكفايات قوة ذات اثر واضح في الحياة ، نستطيع ان نجلو نواحي ضعفنا الوظيفي ولنتبين حقيقة أمراضنا الادبية والعقلية . انتا بغير الاستغراق في درس علوم الاحياء نعجز عن معرفة السنن التي تحكم أوجه نشاطنا العضوي والروحي ، كما نعجز عن ان نعرف ما يجب ان نتنكب وما ينبغي ان نقبل عليه من أشياء الحياة ، او أن نحقق على الانل مدى حريتنا في ان نحوّر من بيئاتنا أو انفسنا بمحض اختيارنا

ان حالات البقاء الطبيعية قد حطمتها الحضارة الحديثة ، وهذا ما يجعلنا نشعر شعوراً عميقاً بأن العلم بالانسان قد أصبح أسسّ العلوم بكيانا

في الادب

قال الطغرائي في ولدٍ لهُ وافاهُ على كبر :

هذا الصغير الذي أوفى على كبري ... أقرَّ عيني ولكن زاد في فِكَري

وافى وقد أبقت الايام في جسدي ... ثلثاً كثلم الليالي دارة القمر

والشيب أردف مسوداً بمشتعل ... والدهر أعقب منصاتاً بمستطر

سبع وخمسون لو مرَّت على حجر ... لبان تأثيرها في صفحة الحجر

فزاد حرصي على الدنيا وجدَّد لي ... ضنَّا بمالي واشفاقاً على عمري

أضوى عليه وأخشى ان يباجلني ... يومي، ولم أقض من تشريحه وطري

وأشتهي أن أراهُ وهو مقتبلٌ ... غض الإهاب خضيب الوجه بالشعر

أحيي مآثر آبائي وأشبههم ... في مجدهم،وانتي في هديهِ أثري